الصيد البحري بالسواحل الأطلسية من بلاد المغرب في العصر الوسيط

د. محمد بن عميرة
قسم التاريخ
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة الجزائر

ملخـــص:

كان لسواحل بلاد المغرب الأطلسية، المحصورة ما بين مدينة طنجة شمالا ونهـر السنغال جنوبا، نشاط مماثل ومكمل لنشاط سواحلها الشمالية المتوسطية فـي مجـال الـصيد البحري في العصر الوسيط:فمن الأولى كانت الثانية تستقبل حوت التُن المتواجد فـي خلـيج السّلوقي((Baie du lévrier) ويعيش في الأعماق الكبيرة، بعيدا على السواحل التي لا يقترب منها إلا في موسم صيده ويصاد على الخصوص عند مصب الـساقية الحمـراء وفـي رأس بوجادور(Cap Bojador) الواقع إلى الجنوب منها.

كما تشير المصادر إلى اصطياد أنواع أخرى كثيرة من الأسماك عند البحيرات التي أحـدثها نهـر لكـوّس(Loukkos-Luccus)والتـي أحـدثها وادي بَهـت(Beht) بـسهل أزغار(Azgar)،وإلى اصطياد السلاحف من جزيرة أيْوني التي قد تكون هي جزيرة إيويلى ( ) Iwili الحالية، جنوب غرب موريتانيا ،قرب مصب نهر السنغال.

وكان يقطن سواحل موريتانيا الحالية و وادي الذهب (بالصحراء الغربيـة) بربـر تُطلق عليهم تسمية أزناق(Azénegues) ، يعيشون من الصيد البحري الذي كانوا يمارسـونه بمراكب بسيطة أو انطلاقا من الأرض، دون استعمال المراكب ،مع الإشارة إلى أن مصطلح القارب مثله مثل الزورق كان معروفا ويستخدم كلاهما في صـيد الأسـماك مـن الـشواطئ الجنوبية الغربية من بلاد المغرب.

قلما تلتفت الدراسات البحرية التي تناولت بلاد المغرب، في العـصر الوسيط إلى ما جرى على سواحلها الغربية ، مع أنها تمتد على مسافة طويلـة

جدّا، من شمال غرب المغرب الأقصى، عند مدينة طنجة إلى جنوب موريتانيا، عند حدود السنغال ، وكان لها نشاط مماثل أحيانا ومكمل أحيانا أخرى،لما كان يجري في السواحل المغربية من الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

ففي مجال الصيد البحري ، مثلا يذكر ابن سعيد المغربي أنّ مصدر حوت التن الذي يصاد بسواحل بلاد المغرب المتوسطية، هو جون (خليج) التن الواقع في الجزء الأول من الإقليم الثاني ، على ثلاث درجات من حدود الإقليم الثاني،وعرضه أكثر من درجتين ، وسمى أيضا الخليج الأخضر لقلة عمقه (لأن فيه أقاصير Hauts fonds) ولما فيه من الحشيش الأخضر(كتاب الجغرافيا ، ص 111، الترجمة الفرنسية .p.212 .)،وتمتد حدود هذا الجزء ، في رأي Cuop J.M.، من المحيط الأطلسي إلى حدود تانزروفت (Tanezrouft) الغربية طولا ومدينة أزوكي Azuki(Azoggi)، قرب أطرار ، بشمال الساقية الحمراء(نول لمطة) عرضا.(Recueil , pp. 211-212, note3).

ويشير Ch. De la ronciére إلى ما رواه الجغرافي المذكور عن المسمىّ ابن فاطمة الذي ركب البحر المحيط ، ذات يوم في نول لمطة ، جنوب المغرب الأقصى،" فوقع إلى ضباب وأقاصير (hauts fonds= bas fonds) وضل البحريون، ولم يعلموا حيث هم ، حتى تركوا المركب الكبير وأخذوا زادا في القارب الصغير وصاروا يجرّونه على الحشيش طورا وطورا ينهضون بالمجاذيف إلى أن انتهوا ، بعد مدة، إلى قاع هذا الجون (الخليج) ، وعاينوا من التن فيه ، ومن كثرته ، ما تعجبوا منه ، وكذلك من الطيور البيض ... فلما انتهوا إلى تحت الجبل اللّمّاع، أشار عليهم برابرة كُدّالة ، ألا يقربوا الجبل ، فأخذوا عنه شمالا حتى خرجوا عن حدّه ... وسألهم أهل المركب عن تحذيرهم إياهم ، عن الجبل اللماع ، فقالوا: كله حيّات مُهلكة قتّالة... وساروا معهم إلى مدينة تَغيرَا ، قاعدة كدّاله"(أنظر ابن سعيد المغربي:ص111،ويحدد ابن سعيد

موقع تغيرا حيـــث الطول 11°والعرض20 °)ولا يُعرف لماذا أطلـق de la Ronciére تسمية idjikdja على ما أسماه ابن سعيد تغيـرا، ويعتبـر نفـس المؤلف الجبل اللّمّاع هو الرأس الأبيض الذي يَحْمِي (Abrite) خليج السّلوقي (baie du lévrier)، وهو الجـــون (الخليج) الذي كان فيه سرب التن، و الطيور البيض مـا هـي إلا البلـشونات (Hérons)(La decouverte de l'Afrique.48-49)، وجون (خليج) التن، حسب ابن سعيد، هو الذي يقال له الجون الأخضر ، لان فيه أقاصـير (bas fond = haut fonds) وحشيـشا أخضر كثيرا ، وفيه سِرب التن الذي يدخل ،مرة واحدة، في بحـر الرومـان (الأبيض المتوسط)، ويعتقد الناس أنه يحج إلى حجر معين في جزائر البحر ثم يعود من حيث أتى (كتاب الجغرافيا ، ص 111).

ويرى Mauny.R. أن التن الذي ذكره ابن فاطمة ، أثناء رحلته في القرن الثالث عشر الميلادي (7 هـ) ، يكون محل صيد خاص ، في مكـانين فقط ، من الساحل الصحراوي ، هما : مصب الساقية الحمراء ، و ناحية رأس بوجـادور (Cap Bojador) الواقـع إلـى الجنـوب منـه ، علـى الخصـوص.(Les navigations médiévales, p.89).

وبالنسبة للزهري فإن حوت التن يتكون في بلاد النوبة التي تكـون في الصقع (Zone) الأول من الجزء (Section) السابع(*). حيـث ينقطـع البحر ويصير خلجانا كثيرة ، بسبب ارتفاع الأرض ، في حين تَحدث ظـاهرة تفرّع المحيط إلى خلجان ، حسب ابن زنبل ، في بلاد السودان وبهـا يتكـون سمك التن، ويتفق المصدران الأخيران ، على أنه يتجه من مكان تكوّنه نحـو الأندلس وجزيرة إقريطش (كريت) ، قاطعا البحر من الجنوب إلى الـشمال حتى يصل إلى الخليج المسمى بالزقاق (مضيق جبل طارق) ثم يقطـع البحـر

(*) – يشمل هذا الجزء بلاد السودان وأرض الحبشة و الزنج و النوبة (كتاب الجغرافيا) ، ص 119، الترجمة الفرنسية في (Cuoq. J.M.: op.cit.,pp.115-116.)

الأبيض المتوسط، طولا، حتى ينتهي إلى جزيرة كريت، حيث يتوقف ،وهو سريع جدا ، إذ يقطع أربع مائة وألف (1400) فرسخا (parasanges)، من نقطة انطلاقه إلى نقطة وصوله ، في يوم وليلة (أربع وعشرون ساعة)، ولا يخرج للهجرة إلا في أول يوم من شهر مايو ، وقد يصل جزيرة كريت في اليوم الثاني منه، وتدوم هجرته شهرا ، ثم يعود من حيث أتى، في أول يونيو.(Tohfat el Molouk, PP 187-188).

ويتميز التّن ، حسب الملاحظات الحديثة ، بجسم ضخم ، أزرق صلب ، يبلغ بضواحي الشواطئ التونسية حجما هائلا ، حيث يصل طوله ما بين متر واحد وثلاثة أمتار ، ووزنه ما بين 70 و 300 كيلوغراما وأكثر ، وهو يقترب من الساحل ليدخل في منطقة الصيد، في نهاية مايو، وعندها يُشرع في صيده ، غير أن مشكل أجناسه وأصله ومكان قدومه ، ما زال مطروحا بكامله ، وهو يعيش عادة في الأعماق الكبيرة بعيدا عن السواحل فلا يقترب منها إلا في هذا الموسم.

ويشير صاحب كتاب الاستبصار إلى بحيرة كبيرة تسمى أمسنا ، قرب مدينة تشومّس، يصب البحر فيها سبعة أعوام ، وتصب هي فيه سبعة أعوام، وينقطع عنها فتظهر بها جزائر ، بينها غذران يُصطاد فيها نوع من الأسماك.(مؤلف مجهول ، ص 26، الترجمة الفرنسية L'Afrique septentional au XIIe,p .52).

كما يسجل vonderheyden ما جاء في قول ابن خرداذبة، في القرن التاسع الميلادي ، من أن البحارة لم يستغلوا المحيط الغربي (op. cit., p.19)، دون أي تعليق ، وقصده من هذا التسجيل ، ولا شك، هو محاولة إثبات أن شواطئ المحيط الأطلسي لم تكن مستغلة آنذاك من قبل الصيادين ، وهذا غير صحيح لأن الإدريسي يتحدث عن " صيود ... بحر" في مدينة قصر عبد

الكريم،الواقعة على نهر ألكس (لكوس) (Luccus) غرب مدينة مكناسة بثلاث مراحل (المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق للإدريسي، حققه ونقله إلى الفرنسية محمد حاج صادق الجزائر 1983،النص العربي ص 98، الترجمة الفرنسية ص90).كما أنّ الحسن الوزان يذكر بالقرب من مدينة العرائش ، الوقعة على المحيط الأطلسي ، عند مصب نهر لكوّس(Luccus) ، وجود برك تصطاد بها أعداد كبيرة من سمك السلور أو الانقليس أو الشلبة (anguilles) Description de l'Afrique, T.1,pp.251-252 ، ويشير نفس المؤلف إلى وجود نفس النوع من السمك إضافة إلى البرعان الاحمر(rotengles) و الزنجور (brochet) وغيرها، مما لم ير مثلها بإيطاليا، وهي لذيذة جدا، ومع ذلك فلا يصطادها أحد في بحيرة دائمة جميلة تسمى وارار ، بالقرب من الجبل الأخضر ، الممتدّ غرب وادي أم الربيع إلى تلال هسارة (Hasara).

وعندما خرج سلطان فاس ، أبو عبد الله محمد البُردُ قالي (el-Bordougali) إلى دُكّاله في يونيو 1515، أقام بالقرب من تلك البحيرة ، ثمانية أيام ، وكلّف البعض بالاصطياد فيها(Ibid, p.128، وقد اختفت تلك البحيرة ، فيما بعد، بسبب تعرض ناحيتها للتعرية الكاملة ، ومازال اسم وارار يطلق على عين تقع غرب الجبل الأخضر بحوالي 30 كلم(A. Epaulard : Description de l'Afrique, T.1, p. 128 note 317.)كما كانت السلبة تصطاد ، إلى جانب البيوضة (Loche) و الشابل (Alose) في المستنقعات والبحيرات التي أحدثها وادي بهت (Beht) بسهل أزغار (Azgar)،وهي مدهشة عموما ،من حيث كبرها وكثرة شحمها (Description de l'Afrique, T.2, p.544).

وكان يظهر بسواحل المحيط الأطلسي ، أحيانا ، سمك العنبرة ، وهو سمك يصفه الوزان بأنه مرعب في شكله وضخامته ، ولا يُرى إلا ميتا، عندما يقذف به البحر إلى الشاطئ ، رأسه يابس جدا ، وكأنه صخرة ، طول بعضه

خمسة وعشرون ذراعا (16.75م)، و البعض الآخر أكثر من ذلك ،ويقول سكان تلك النواحي بأنه هو الذي يفرز العنبر لكنهم يختلفون فيما إذا كان ذلك بُرازه أم سائله المنوي(Description de l'Afrique, pp.564- 565.)

وقد ثُبت، فيما بعد ، أن العنبر عبارة عن إفرازات معوية لسمك العنبرة، ويوجد منه نوع جيد على ساحل المحيط الأطلسي(Description de l'Afrique, (p.256 note 117 ، كان يباع بأسعار بخسة ، في عهد الوزان، إلى التجار البرتغاليين، وتجار فاس، الأوقية الواحدة بدوكا (ducat) واحد (Description de l'Afrique, p.89).

ويلاحظ Vonderheyden أن أوصاف الوزان للعنبرة (Cachalot) التي يسند لها ، بغير وضوح ، أصل العنبر، تنطبق على الحوت (Baleine).

ثم يضيف (La pêche sur les cotes barbaresque , p16. (دون أي توثيق) أن معتقدا عربيا آخر يقضي بان العنبر يخرج من عيون في أعماق البحر(Vonderheyden: La pêche ,p.16) ، ويحدث كثيرا أن يلقي المحيط، عندما يكون مضطربا ، عددا من الحوت الميت على شاطئ مدينة ماسة، الواقعة عند الحد الذي تبدأ فيه جبال الأطلس، قرب وادي ماسة [1].

ويوجد على ذلك الشاطئ، خارج مدينة ماسة مسجد يحظى بتقدير الناس وإجلالهم ، يسمى مسجد بهلول، أشار إليه اليعقوبي ، في نهاية القرن التاسع الميلادي (3 هـ)، كانت أعمدته (solives) كلّها من أضلع الحوت(Description de l'Afrique, T.2,p. 289) وعندما

---

(1) كانت مدينة ماسة تتكون من ثلاث تجمعات سكانية ، يبعد بعضها عن بعض بحوالي ميل واحد (Description de l'Afrique, T.1, p.87)، ويذكر الوزان أن وادي سوس الكبير يمر بين مدن ماسة الثلاث (Ibid, p.88) غير أن A. Epaulard يصحح الخطأ و يحدد موضع مدينة تاسة قرب وادي ماسة (Ibid, p.88, note 81)

دعى رجلٌ الوزانَ ، لتناول غذاء بحديقة خارج المدينة، وجدا في طريقهما ضلعة حوت ، وضعت في شكل قوس ، فمرّا منه راكبيْن ، على ظهري بعيريهما، كما يُمرّ في الباب، دون لمس قمتها ، من شدة علوها ، وقد قيل له : إنها وضعت بذلك المكان ، منذ مائة سنة، على سبيل الفضول (Description de l'Afrique,P.289).

ولم يصدق الوزان ما كان يقوله الناس بتلك الناحية من أن كل الحوت الذي يمر قرب مسجد بهلول يموت بفضل الكرامات التي وهبها الله لهذا المسجد، بل مال إلى تصديق معلومات زوده بها شيخ يهودي ، من أبناء المنطقة، أفاده فيها بوجود صخور كبيرة وحادة ، في البحر المحيط، على بعد حوالي ميلين من الشاطئ، يصطدم بها بعض الحوت، حينما يكون البحر هائجا، يصاب إلى حد الموت، ثم يخرجه البحر إلى الشاطئ، وهو ضخم الجثة، مشوه الخلقة، لدرجة تخيف كل من يراه-(Description de l'Afrique,pp.88 89). ولا شك أن اضطراب مياه المحيط الأطلسي إلى هذا الحدّ، مع وجود صخور كبيرة وحادة يفسر عدم إقبال الناس بشكل كبير، على الاصطياد في سواحله رغم كثرة الأسماك فيها.

وقد يحدث أن يُخرج البحر أيضا الحوت في السواحل المغربية الشمالية، مثل ما حدث في القرن السابع عشر، حيث روى الرحالة الانجليزي شاو(Shaw) أن البحر ألقى حوتا تحت أسوار مدينة الجزائر، عرضه ستون قدما (Vonderheyden:,p.16)، مع العلم أن الحديث عن سمك العنبرة يُذكّرنا بما أورده المقدسي، في حديثه عن عجائب المغرب، عن أبي قلمون، وهو، فيما قال:" دابة تحتك بحجارة على شاطئ البحر فيقع منها وبرها، وهو في لين الخزّ، لونه لون الذهب، لا يغادر منه شيء، وهو عزيز الوجود، فيجمع ويُنسج ثيابًا تتكون منها في اليوم الواحد،ألوان كثيرة، ويَمنع السلطان من حمل ذلك

إلى البلدان، إلا ما يخفى عنه، وربما بلغ ثمن الثوب عشرة دنانـــــــــير".
(AL- Muqa ddasi : p.52; trad. Fr., p.53

وفي أقصى السواحل الجنوبية الغربية ، لبلاد المغرب، يتفق كل مـــن البكري وصاحب كتاب الاستبصار على أن أكثر معاش سكان جزيـــرة أيـــوني [1]من لحوم السلاحف، الموجودة بكثرة في البحر المحيط (الأطلـــسي) وهـــي ضخمة لدرجة أن الشخص يتمكن مـــن الـــدخول فـــي محـــار (carapace) ظهورها، و التصيد بها، كما يَتَصيّد بالقارب(المغـــرب ، ص171، الترجمـــة الفرنسية Monteuil: V.P, pp.66؛كتاب الاستبـــصار ، ص 66، ص 190، الترجمة الفرنسية E.Fgnan:,p .111)

وهناك ، حسب Vonderheyden أسطورة تفيد أن السلحفاة كانت ، فيما مضى عاملا في الخياطة ، سرق من صاحب عمله قطعـــا مـــن القمـــاش (étoffe) فتعرضت إلـــى المـــسخ ، وبـــذلك تفـــسر برقـــشة(bigarrure) محـــــــــاورها .(La pêche.,p .16) .

وقد روى ابن أبي زرع الفاسي قصة عبد الله بن ياسين، مؤسس دولة المرابطين ، ومفادها أنّه لما رأى إعراض قبيلة لمتونة " عنه ... أراد الرحيل عنهم إلى بلاد السودان الذين دخلوا في الإسلام... فلم يتركه يحي بن إبـــراهيم الجدالي، وقال له ... إن هاهنا في بلدنا جزيرة في البحر، إذا حسر البحر دخلنا

---

[1] تقع قرب موضع أو لِيل ،من بلاد جَدّالة (المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب وهو جـــزء مـــن كتاب المسالك والممالك، ط، بغداد، ص171، الترجمة الفرنسية Monteuil V:AL- Bakri, ,p66 مؤلف مجهول : ص 190، الترجمة الفرنسية E. Fagnan: op.cit., p.191 ، وقد تكون هي جزيرة إيويلي Iwili الحالية ، الواقعة بين Tidraو الساحل ، إذ يمكن ، دائما ، الوصول اليهـــا ، مـــشيا علـــى الأقدام ، كما أن السلاحف تتواجد فيها بكثرة ، ويطلق صيادو إمراقنImraguen تسمية ايوينة Iwina على الشاطئ الرملي المحيط، مما جعل V.Monteuil لا يتأكد مـــن تحديـــد موقـــع أيـــوني بالـــضبط(V.Monteuil: Al Bakri.,p.106, note8)

إليها على أقدامنا ، وإذا ملا دخلنا في الزوارق، وفيها الحلال المحض الذي لا شك فيه ، من الشجرة البرية ، وصيد البر و البحر ، وأصناف الطير و الوحش و الحوت فنعيش بها في الحلال... فدخلاها ودخل معهما سبعة نفر من جدالة . وأقام بها مدة ثلاثة أشهر ... فكثر الوارد عليهم و التوّابون ... فلم يمر أيام حتى اجتمع عليه ...نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة فسماهم المرابطين".(ابن أبي زرع: ص 78-79.)

وما يمكن استنتاجه ، من هذا النص أن الجزيرة التي تحدّث عنها يحي بن إبراهيم ينطبق عليها وصف جزيرة أيوني ، وأنها كانت آنذاك تابعة لجُدّالة وأن إمكانية الصيد بها كانت كبيرة استطاعت أن توفر الغذاء لألف شخص ،مع العلم أن النص اقتصر على ذكر الحوت، دون السلاحف.

ويلاحظ Mauny R. أن سكان الأرض اليابسة،ما بين وادي نون السنغال،هم اليوم أخلاط من العرب و البربر ولكنهم كانوا ، خلال الجزء الأول من العصر الذي يهتم بدراسته ، أي الوسيط ، كلهم، بربرا، ولم تصل الغزوات الهلالية ، (التي استقر العرب على إثرها في المنطقة) إلاّ حوالي سنة 1220م، وإحدى تلك المجموعات البربرية التي يبدو أنها حافظت على هويتها،في لغتها وطريقة معيشتها تتمثل في صيادي السمك. (Mauny R. pp.22-23.ويمضي Mauny قائلا:" إن R. Montagne يسمي شواطي المغرب الجنوبية ، المحصورة بين رأس كانتين (Cantin) وبين وادي درعة " الساحل البربري"كما ميزّ أحد المؤلفين الأوائل: Valentin Fernandes ،السكان الموجودين جنوب الرأس الأبيض، موريتانيا الحالية، إلى عرب (Alarves) وزناقة الصيادين (Azenégues shirmeyr os) المنتشرين بين أرغين (Arguin) والسنغال وكان زناقة zenaga هؤلاء (أي صنهاجة) تابعين (tributaire) للعرب..." (Mauny.R, p.23)

ومما توصل إليه Mauny أيضا في بحثه عن الملاحة (navigation) في السواحل الصحراوية أنّه" باستثناء صيادي السمك المنتشرين فيها وخاصة صيادي المغرب الأقصى و الأندلس الأطلنطية، لم يكن يوجد سوى أسطول واحد (une seule marine) جدير بهذا الاسم وهو الأسطول البيزنطي.(Mauny:,p.26).

ويتوقف Mauny عند ما ذكره اليعقوبي في كتاب البلدان الذي انتهى من كتابته سنة (276هـ/ 889م) من أنّ سُفُنًا ترْسُو قرب مسجد بهلول الواقع بقرية ماسة من بلاد السوس هي سفن خيطية مصنوعة بالأُبلَة (*)ويُرْكَب فيها إلى الصين ، متخذا من هذه المعلومة دليلا على أن سفنا مغايرة لسفن الصيد المحلية، كانت تصل جنوب المغرب الأقصى، منذ القرون الإسلامية الأولى.(Mauny: p.27)

ويلاحظ نفس المؤلف أن الإدريسي يذكر نقطة واحدة لصنع السفن بالمغرب الأقصى، هي طنجة ، ومن الطبيعي ، حسب رأيه ، أن تكون مراكب الصيد كثيرة ، على طول الساحل، من سبتة إلى نون ، وقد ذكر الإدريسي أن الصيد كان مهمّا بسبتة وبسلا (Salé) آنذاك، مثلما هو عليه في أيامنا ، وممّا لا شك فيه أن صيادي زناقة (Azénegues) كانوا يصنعون مراكب بسيطة على سواحل موريتانيا ، كما أشار إلى ذلك المؤلفون البرتغاليون الأوائل.(Mauny: p.32).

ويتضح من الإشارة الموجزة في الخريطة النصف أرضية (planisphère) لأنْجلينو دولسرت (Angelino Dulcert1339م) أن سكان السواحل الواقعة جنوب وادي نون كانوا يمارسون الصيد البحري انطلاقا من

(*) – الأبلة : (عنه أنظر ابن منظور لسان العرب ، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة يوسف خياط ، ط، بيروت 1988، ج.1، ص9

الأرض، دون استعمال المراكب(Mauny: p.54) وقد أغفل R. Mauny الحديث عن كيفية تعامل هؤلاء الصيادين مع البحر وإعطاء تفاصيل عن نشاطهم ، ممّا يعود، بكل تأكيد، إلى عدم توفر المادة التاريخية لديه لكن ما يلفت الانتباه أنّ ما جاء في الدراسة التي قام بها Capot-Rey R. عن وضعية صيادي الأسماك على السواحل الأطلسية، في النصف الأول من القرن العشرين، تاريخ صدور مؤلفه، يدفع إلى افتراض أن الوضعية التي تناولتها دراسته لا تكون بعيدة، كل البعد، عن وضعية الصيادين الذين تحدث عنهم Mauny وهذا ما يحتاج إلى توضيح حتى يمكن إعطاء فكرة تقريبية عن ممارسة سكان تلك المنطقة لعملية الصيد البحري انطلاقا من البر في العصر الوسيط.

ومما يفيدنا به Capot-Rey R. ،أن مجموعات صغيرة تسمى إيمراڤن (Imaguen) في موريتانيا، و الشناقلة (Chnagla) في وادي الذهب (Rio de oro) تستغل الصيد بطريقة تذكّر بنمط حياة الترحال الداخلية أكثر مما تذكر بحياة الصيادين، وتتحكم في هجراتها كل من تنقّلات الأسماك ونُذرة نقاط الماء على الساحل : إذ تقترب أسراب (Bancs) البوري(Mulet) من الساحل في أوت وتختفي في إبريل، وتعوّض خلال الصيف بأسماك أخرى أصغر وأقل استحسانا، كما يَعتَبر هذا الساحل من أفْقَر مناطق الصحراء "، لا توجد به سوى العقلات (Oglat) المؤقتة ، ولا توجد الآبار الدائمة إلاّ على بعد عشرين كيلومترا تقريبا ، على أقل تقدير ، وليس تحت تصرف أولئك الرجال سوى أحْمرة لاستخدامها في نقل الماء ممّا يجعل هذه العملية وظيفة شاقة ، ومن ثَمّ فإن تنظيم حياتهم كان حسب إزدواجية هذين المعطيَيْن: السّمك و الماء: ففي الخريف يُنصّب إمراڤن خيّمهم عند نقطة الساحل الأقرب من أسراب الأسماك ، ويصطادون بالشباك ، سواء على الأقدام أو على مراكب تشبه الزوارق (lanches) الكنارية ، ويبقون مُشتّتين، طيلة فصل الشتاء، و

العقلات (Oglats) التي تملأها أمطار الخريف تكفي عندئذ للاستهلاك العائلي، ومع بداية ارتفاع درجة الحرارة تقترب المخيّمات من الآبار، وتصبح مواقع الصيد البحري قاحلة في الصيف ، ويتوغّل إيمراقن في الداخل لبيع السمك المجفف أو للانضمام إلى مخيّمات أسيادهم (Leurs maîtres) . ومجموعاتهم صغيرة جدا بحيث لا يوجد أكثر من 500 صيادا، موزعين على مسافة مائتي كيلومترا ، ما بين الرأس الأبيض ورأس تميريس (Tmiris) وكان الإمراجن خاضعين لإتاوة تتناسب مع كميّة السمك المجفف(Capot-Rey: pp.209-210).

فسكان المناطق الصحراوية الأطلنطية في العصر الوسيط كانوا ، ولا شك ، يمارسون نشاطا بحريا لا يختلف كثيرا عن أحفادهم في العصر الحديث وممّا يؤكد وجود ذلك النشاط ما رواه ابن أبي زرع الفاسي، كما أسلفنا القول، من أن عبد الله بن ياسين، مؤسس دولة المرابطين، تمكن من الاقمة ، مع أصحابه مدة ثلاثة أشهر، بجزيرة أيونى، وكان صيد السمك موردا رئيسيا لهم، رغم أنّ عددهم بلغ ألف شخص.

وما يمكن استنتاجه من نص ابن أبي زرع ، الذي وردت فيه هذه المعلومات، أن هذه القبيلة (جدالة) كانت تستخدم الزوراق، وتمارس صيد البر والبحر في جزيرة أيوني ونواحيها .

ويطلق ابن سعيد المغربي تسمية " جزيرة الملح " على جزيرة أيوني، ويحدد موقعها " أمام مصب النيل (نهر السنغال) في البحر المحيط... وطولها من الشمال إلى الجنوب درجتان وقليل ، ووسعها نصف درجة ، وفي طرفها الجنوبي ، على البحر مدينة أوليل ... وعيش أهلها من السمك والسلاحف وتجارتهم بالملح... وإلى جانب هذه الجزيرة ، جزيرة العنبر وبينهما مجاز مقداره نصف درجة ،وبينها وبين البر أقل من ذلك وطولها درجتان ووسعها في الأعلى ثلاث درجات ،ويقال لها أيضا جزيرة السلاحف ، إذْ فيها من ذلك

الكثير، وأهل تلك الجهات يقددون لحمها ويسافرون به"(كتاب الجغرافيا ، ص90؛ أنظر De la Roncière Ch: p.49).

ويتفق كل من البكري وصاحب كتاب الاستبصار على أن محاور ظهور تلك السلاحف ضخمة لدرجة تمكن الشخص الواحد من الدخول فيها والتصيد بها كما يتصيد بالقارب(المغرب ، ص 171، الترجمة الفرنسية V. Monteuil:,p .16 مؤلف مجهول ، الترجمة الفرنسية E. Fagnan p.190)، وحتى وإن كانت هناك مبالغة واضحة، فالذي يهمنا أن مصطلح القارب مثله مثل الزورق كان معروفا ويستخدم كلاهما في صيد الأسماك في الشواطئ الجنوبية الغربية من بلاد المغرب.

وبسواحل المحيط الأطلسي أيضا ، يظهر سمك العنبرة ، ميتا ، عندما يقذف به البحر إلى الشاطئ، ويقول السكان هناك ، حسب الوزان ، بأنه هو الذي يفرز (secrète) العنبر.

والنتيجة التي يمكن الوصول إليها، في نهاية الأمر، أن سواحل المحيط الأطلسي، من البلاد المغربية، عَرفت في العصر الوسيط نشاطا متقاربا مع النشاط الذي عرفته سواحل البحر الأبيض المتوسط لنفس البلاد، أحيانا، ومتكاملا معه أحيانا أخرى لكن مثل هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة معمقة تأخذ بعين الاعتبار ما قد يُكتشف مستقبلا، من مخلفات أثرية، إضافة إلى ما قد يكتشف من مصادر خطية.

البيبليوغرافيا:

1- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط. UPSALIAE 1943.

2- الزهري : كتاب الجغرافيا، الترجمة الفرنسية لـ Cuoq-J.M. dans recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentales du VIII[e] au XVI[e] siècle,Paris1975

3- ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي ، الجزائر 1982؛ الترجمة الفرنسية فيCuoq-J.M. dans recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentales du VIII^e au XVI^e siècle,Paris 1975.

4Alfred- مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر النص العربي Krema: الترجمة الفرنسية؛ ط. فيينة 1852 ، Fagnan. E :L'Afrique septentional au XIIe siècle de notre ère , (description extraite du Kilab- el istibçar, Constantine 1900,p .52.

-5AL- Muqaddasi :Description de l'occident musulman au IV^e X^e siècle, texte arabe et traduction par charles pellat, Alger 1950, texte arabe, et traduction française

-6 Capot-Rey:L'afrique Blanche française,la sahara français,Presses universitaires de France,Paris 1953,T.2.

7 -De la Roncière (Ch): La découverte de l'Afrique au Moyen Age, cartographes et explorateurs, l'intérieur du continent, T.1, mémoire de l'institut royal de géographie d'Egypte, T.V, M D CCC XXIV (1924)

-8 Ibn Zenbel: Tohfat el Molouk, extraits relatifs au Maghreb, Alger 1924.

-9 Léon l'Africain J. : Description de l'Afrique, traduite de l'Italien A: Epaulard et annotée par A: Epaulard et autres, n elle éd., Paris1980.

-10Monteuil V.:Al-Bakri:Routier de l'Afrique Blanche et Noire,dans Bulletin de l'institut français de l'Afrique Noire,série B, No 1,1968,T.xxx.

11 -Vonderheyden: La pêche sur les cotes barbaresque au Mayen Âge.